ARAPÇA SES BİLİMİNDE TAKLİT/SİMÜLASYON TEORİSİ

Murad Kafi*

Mehmet Şirin Çıkar**

Özet

Arap Dilinin oluşumunda taklit teorisi, genel olarak tüm dillerde ve özellikle de Arap dilinin gelişiminde birçok sebepler arasında dayanılan en temel sebep olup büyük oranda ikna edici olduğu görülmektedir. Teori, yeni kelimelerin icadında ve isimlendirmeyi kabulde Arapçanın kendi toplumunda benimseyip sözlüklerine koymakta zorlandığı bu durumda önemli ve etkin bir rol oynayabilir.

Taklit teorisi, Arap Dilinde kelimelerin türetilmesinde, lafız zenginliğinin arttırılmasında ve anlam alanını genişletmede başarılı bir metod olabilmek için kavramları Arapçalaştırma yöntemleri içinde kendisine bir yer bulmuştur. Bu metot aynı zaman bütün çeşitleriyle Arapçayı sağlamlaştırma temellerine de uygunluk arz etmektedir.

Anahtar Kelimeler: Teori, taklit/simülasyon, dil, ses hecesi ikili hece.

SIMULATION/IMITATION THEORY IN ARABIC SOUND SCIENCE

Abstract

The theory of imitation in the formation of the Arabic language seems to be convincing in the greatest sense as the most fundamental reason to stand among many reasons generally in all languages and especially in the development of the Arabic language. The theory may play an important and effective role in this situation where new words are invented and accepted by the Arabs in their society, and they are forced to embrace them.

The imitation theory has found itself in the methods of Arabicization of concepts to be a successful method in the derivation of the Arabic words, the increase of the affluence of the words and the expansion of the field of meaning. At the same time, this method is also suitable for all types of consolidation of Arabic.

Keywords: theory, imitation / simulation, language, sound biled syllable.

نظرية المحاكاة في الدرس الصوتي العربي

الملخص

إنّ نظرية المحاكاة في نشأة اللغة العربية تبدو مقنعة إلى درجة كبيرة في اعتمادها سببًا رئيسًا من الأسباب العديدة في نشوء اللغات الإنسانية عامة، والعربية خاصة. ويمكن أنْ تلعب دورا مهمًّا وفعّالًا في توليد مفردات جديدة، واستقبال مسميّات حديثة، ممّا قد تضطرّ العربية إلى استقباله، وإدخاله في معاجمها، سواء كانت من مجتمعها الداخلي أم من مجتمعات خارجية قريبة أو بعيدة.

فالمحاكاة بذلك تشقّ طريقها وسط مصطلحات التعريب والنحت وغيرها، لتغدو طريقة ناجحة من طرق توليد مواد اللغة العربية، وإغناء ثروتها اللفظية، وإثراء مخزونها الدلالي، وهي تناسب في الوقت نفسه أسس التقعيد العربي بأنواعها كلها.

مفاتيح البحث: النظرية، المحاكاة، اللغة، المقطع الصوتي، الجذر الثنائي.

تمهيد:

* Öğr. Gör. Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı

** Prof.Dr. Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı, msirin@yyu.edu.tr

إن هذه المقالة تتناول نظرية المحاكاة، إذ إن الباحث ليجد فراغاً ملحوظاً في سير الخط العلمي فيما يخص هذا النوع من الدراسات اللغوية، و التي يستحوذ فيها عامل الزمن على أهمية كبيرة، فظاهرة المحاكاة في ألفاظ اللغة العربية الفصحى لم تُعالَج إلا من جوانب سطحية عامة، وهي بَعْدُ لم تأخذ حقها من الدرس اللغوي، والاستقصاء الدلالي. هذه المقالة تقوم على فكرتين: المحاكاة والثنائية، حيث إنني لمست في المحاكاة سبيلًا مقنعًا إلى تصوير لغة الإنسان الأول في أول وجوده البسيط.

سنحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي قد تخطر في ذهن أيّ منّا عن طبيعة اللغة التي استخدمها الإنسان البدائي في التعبير عن أصوات محيطه الخارجية، أو عن مشاعره الداخلية من أمل وحزن وخوف....إلخ.

مدخل: إن فكرة نشوء اللغة عامة - والعربية خصوصاً- من أصول قليلة ثنائية الأحرف، مأخوذة في أغلب الظن عن محاكاة أصوات الطبيعة والنفس، يمكن أن تعد مسلكًا يكاد يكون مقنعًا للقول: إن أصول لغتنا العربية مؤلفة من جذور ثنائية مكونة من متحرك فساكن، تعبّر بعفوية وبساطة شديديتين عمّا يحيط بالإنسان أو يحسه أو يريده.

إن هذه الدراسة تسعى إلى عرض هذه النظرية على اللغة العربية؛ لما يظهر في حروف العربية من سمات أهمها: الخصائص الهيجانية و الإيحائية بأصواتها.

بداية حريٌّ بنا أن نعرّف ببعضٍ من النظريات التي تتناول نشأة اللغة وأصلها؛ للوقوف على أبعاد التحليلات والتأويلات الباحثة في فكرة تكوّن اللغة، فمن هذه النظريات:

. النظرية التوقيفية: تقول إن أصل اللغة (توقيف)؛ أي هي وحي إلهي لقّنه الخالق سبحانه وتعالى لمخلوقه الإنسان، الذي أوكل إليه خلافته في الأرض. وممن قال بنظرية التوقيف أحمد بن فارس(ت.395هـ)، و قد أشار إلى ذلك الباحث صالح سليم الفاخري في كتابه (الدلالة الصوتية في اللغة العربية)، حيث دلّل على إشارة ابن فارس لهذه النظرية بإتيانه دليلًا نقليًّا هو قوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين" (البقرة: 286/31)[1].

. النظرية الاصطلاحية: تقول هذه النظرية إن أصل اللغة هو الاصطلاح وتردفه بالتواضع؛ وقد عرّف الشريف الجرجاني(ت.816هـ) الاصطلاح بقوله: " اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول، و إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى معنى آخر، لمناسبة بينهما"[2] . وتبدو النظرية الاصطلاحية في نشأة اللغة أكثر بساطة ووضوحا في تعريف ابن جني(ت.392هـ)، حيث يقول في (الخصائص) متحدثا عن الاصطلاح والمواضعة في نشأة اللغة:" وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحدة منها سمة ولفظا، إذا ذُكر عُرف به مسمّاه، ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن

[1] - الفاخري، صالح سليم عبد القادر، *الدلالة الصوتية في اللغة العربية*، بدون رقم طبعة، الناشر: المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، بدون تاريخ طبع، ص 35.

[2] - الشريف الجرجاني، علي بن محمد، *التعريفات*، حققه وقدم له ووضع فهارسه: إبراهيم الإبياري، ط2، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 1994 م، ص 44-45.

إحضاره إلى مرآة العين فيكون بذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله"[3]. فحدّ الاصطلاح على وضع المسميات عند ابن جني هو اجتماع ثلاثة أشخاص فأكثر مشترطا الحكمة والعقلانية من خيرة الناس. فتعريفه هذا التزم مسألة نشأة اللغة ضمن مفهوم الاصطلاح والتواضع.

. النظرية التوفيقية: وينادي أصحابها بمصطلح التوفيق بين التوقيف والاصطلاح؛ بمعنى أن الله تعالى وهب الإنسان القدرة على اصطلاح الكلمات، وكرّمه بالآلية المناسبة التي تمكنه من التعبير عن المعاني التي يرومها. قديمًا وَفَّق أفلاطون(ت.347 ق.م) بين الفكر التوقيفي لهيراقليطس(ت.475 ق.م) وبين الفكر الاصطلاحي لديمقريطس، وهذا في الغرب المسيحي في أثناء فترة العصور الوسطى. أما في الشرق الإسلامي فقد نادى القاضي أبوبكر(543هـ) بنظرية التوفيق؛ و حجته منح الله الإنسان مَلَكَتَي الإلهام والخلق.[4]

ويتفق التهانوي (ت.1158هـ) مع الجرجاني في تعريفه مفهوم الاصطلاح عندما حدده بقوله: " الاصطلاح هو المعرَّب الخاص، وهو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله عن موضوعه الأول لمناسبة بينهما، أو لمشاركتهما في أمر، أو مشابهتهما في وصف أو غيرها"[5]. فالأسماء ما هي إلا مصطلحات قد تواضع الناس على معانيها، ودأبوا على استخدامها وفق هذا التواضع. فنظم الحروف وفق هذا التواضع إنما " هو تواليها في النطق فقط ، فليس نظمها لمقتضى من معنى"[6]، وهذا يفضي إلى أن "الكلمة ليست إلا إشارة ، و المعنى الذي تحمله بصوت حروفها اعتباطي صرف"[7] وفق ما رآه دي سوسور(De Saussure).

.النظرية الفطرية: تقول إن أصل اللغة فطري، وممّا قاله أصحابها إن اللغة قد اقتُبست من الطبيعة عن طريق المحاكاة، وعزوا منشأ ألفاظها إلى العملية الصوتية التي استخدمها الإنسان الأول وهو يقلد الأصوات من حوله في الطبيعة. ولاحظ أصحاب هذه النظرية أن ثمة علاقة ذاتية ملموسة بين الفكر والكلمة، وممن قال بها من العرب- قدامى ومحدثين- : الفراهيدي (ت.174هـ) و سيبويه (ت.180ه) و ابن جني وأحمد فارس الشدياق(ت.1304ه) وغيرهم. وممن قال بها من علماء اللغة الغربيين: أفلاطون وغريغوريوس ديولاند(ت.389م) والقديس أوغسطينوس (ت.430 م).[8]

---

3 - ابن جني، أبو الفتح عثمان، *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النجار، ط2، دار الهدى، بيروت، 20/1.

4 - الحاج، كمال يوسف، *في فلسفة اللغة*، ط2، دار النهار، بيروت، 1978، ص22 وما بعدها.

5 -التهانوي، محمد علي، *موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم*، تقديم وإشراف: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناتي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م، 212/1.

6 - الجرجاني، الإمام عبد القاهر، *دلائل الإعجاز في علم المعاني*، صحح أصله الشيخ محمد عبده، أ. محمد التركزي الشمقيطي، علق حواشيه: محمد رشيد رضا، ط1، منشورات جامعة تشرين، اللاذقية، سورية، بدون تاريخ طبع، ص32

7 - الوعر، مازن، *قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث (مدخل)*، بدون رقم طبعة، دار طلاس، مطبعة العجلوني، دمشق، بدون تاريخ طبع، ص60 .

8 - قاسم، رياض، *اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي (لبنان في القرن التاسع عشر)*، ط1، مؤسسة نوفل، بيروت، 1984، ص42 وما بعدها.

. نظرية الربط بين اللغة والغريزة: تنادي هذه النظرية بوجود غريزة خاصة- هي ملكة – زُوّد بها جميع أفراد الجنس البشري، وإليها يؤول الفضل في نشأة اللغة عامةً؛ حيث كانت تحمّل كل فرد علّة التعبير عن أي مدرك حسّي، أو معنوي، أو انفعالي عفوي باستخدام أصوات، أو حركات، أو إيماءات خاصة. ولكن بعد نشأة اللغة الإنسانية لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة، مما جعلها تسقط - أي لغة الحركة- أمام تمخّض بوادر ظهور اللغة المنطوقة المستقلة، الأمر الذي جعلها تزول شيئا فشيئا.[9]

. نظرية المحاكاة: اللغة العربية بحكم نشأتها الفطرية، و أصالة الإنسان الذي أبدعها من بيئة واحدة هي الجزيرة العربية وصِفت بأنها مستقلة ومنعزلة جغرافيا، وذلك خلال مراحل متوالية غيابية، ثم زراعية، ثم رعوية شعرية، قد حافظت حتى الآن على أهم ميزتين عُرِفت بهما هما: الأصالة والفطرة؛ فهي أصلح موضع يمكن أن تُجمع فيه النظريات اللغوية جميعها بقصد دراستها واستقرائها.

قد لا يستطيع الباحث أن يصل إلى نتائج حاسمة باعتماد لغات دون العربية تخلّت منذ القدم عن أصول نشأتها الفطرية في الطبيعة، والنفس البشرية، والمجتمع الإنساني في أولى فترات ظهوره؛ فاللغة العربية واحدة من اللغات الساميّة لم يجرِ عليها ما جرى على أخواتها من هجر للأوطان التي ظهرت فيها، وترعرعت في ربوعها، وقويت مع أهلها الأصليين على مثال ما حدث للغات عديدة تخلّت عن ثوبها الطبيعي كالهندية الأوربية، الأمر الذي أطلق العنان للفكر الإنساني مانحاً إياه مطلق الجرأة وغزير الصلاحيات كي يتحكم بشكل جريء واعتباطي بمعاني كلماتها، وأفق مدلولاتها بعيدا عن العوامل الفطرية الأساسية في نشأة اللغة الإنسانية.[10]

فالحروف العربية من منظور الباحث (حسن عباس) تتميز بأن خصائصها ومعانيها مشحونة بشتّى الأحاسيس والمشاعر الإنسانية مما لا تمتلكه حروف اللغات الأخرى؛ مما جعل الكلمة العربية بهذه الطاقة الذاتية تشخّص الأحداث والمسميات والحالات الوجدانية في مخيلات سامعيها وأذهانهم دون أدنى جهد لمواءمة الصوت والمدلول.[11]

الإنسان والمحاكاة:

مرّ الإنسان بأدوار مختلفة محاولاً محاكاة واقعه الذي بدا غريبا عنه وهو يستكشف خفاياه، ففي الدور التقليدي قلّد الإنسان ظواهر الأشياء الحركية والصوتية التي يريد ترجمتها والتعبير عنها، فالأخرس إذا ما أراد أن يعبر عن الفرس فإنه يتعمد الوقوف على يديه ورجليه معًا؛ تقليدًا لهذا الحيوان في مشيته وتناسق حركة أطرافه، وأحيانا كان يلجأ الى استصدار أصوات خاصة للدلالة على بعض أنواع الحيوانات، فقد يصعب عليه تنسيق حركاته وهو يقصد الإشارة إلى حيوان دون سواه، وهنا لا تسعفه لغة الجسد؛ فتأخذه فطرته إلى تقليد الصوت، حاله كحال الطفل عندما يرى كلباً ويسمع نباحه، ثم يُطلب منه أن يعبر عما رأى وسمع، فيقلد صوت النباح وهكذا

---

[9] - أنيس، إبراهيم، *الأصوات اللغوية*، ط1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، 1366 هـ، ص15.

[10] - الوافي، عبد الرحمن، *فقه اللغة*، ط4، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1956 م، ص25 وما بعدها.

[11] - عباس، أحمد حسن، *خصائص الحروف العربية ومعانيها*، بدون رقم طبعة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1988 م، ص19 وما بعدها.

أي حيوان. وما يدفعه إلى هذه المحاكاة هو جهله اسم هذا الحيوان أو غيره من الحيوانات التي يقلد أصواتها إذا ما أراد التعبير عنها.

ففي فترة من فترات الإنسان الأول كان لزاماً عليه معايشتها؛ إذ إنها كانت تشكل جزءًا رئيسًا وحيويًا من مجتمعه البسيط آنذاك. وبمقاربة صورة الإنسان الأول وصورة الطفل تتعزز فكرة الفطرة؛ فالطفل لو تُرك - دون تأثير خارجي - لفطرته لدلّ على كل حيوان بتقليد صوته أو حركته.

وهكذا كان الإنسان في باكورة أدوار وجوده- حالها كحال الطفل المولود حديثاً- يسمع ولكن لا يرى ولا يتكلم، والمحيط الذي يسكنه عبارة عن خليط من الغرابة والإبهام، تسعفه في هذا الدور لغة الحركات والإشارات، ولباقة حركة يديه[12]، وحسن أدائه هذه اللغة مرهون بإجادته عملية الربط والتنسيق بين الأطراف وسائر أعضاء جسده، وقد يُقرن لغة الإشارة بالمحاكاة الصوتية، عندها يكون قد أبدع في ترجمة ما يريد التعبيرعنه.

أثر علمَي الترسيس و التأثيل في مرحلة ما بعد المحاكاة (الدور النطقي):

إن استقراء تاريخ اللغة، وتتبع ألفاظها منذ بداية تكوينها، وصولاً إلى الشكل النهائي، يتمّ بطرق مختلفة، ولعل أهمها ما ذكره (عبد الحق فاضل) في كتابه (مغامرات لغوية)، حيث أوجد فرعاً جديداً في علم اللسان سمّاه (الترسيس)، والذي يميز دراسة أصول الكلمات، كما قام بمقارنة بينه وبين التأثيل (etymology). فالترسيس يعني: إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى في الصورة الأولى التي وجدت عليها كما نطقها الإنسان الأول، وهو يحاول تقليد صوت من الأصوات المسموعة حوله، كأصوات الطبيعة أو الحيوانات، مع تعقب المراحل التطورية لهذه اللفظة مما قطعته في أشواط اجتماعية و حضارية؛ بسبب نمو الفكر الإنساني وتزايد احتياجاته، حتى وصلت إلى الصورة المرئية والمسموعة التي تستعملها إحدى لغات البشر.

وأما التأثيل أو كما يطلق عليه علم أصول الكلمات أو التأصيل و الإثالة، ويقال له علم التجذير وعلم تاريخ الألفاظ، فيعرّفه بقوله: "هو ردّ الكلمة إلى أمها مباشرة أو جدتها المباشرة أو القريبة"[13]

تنفرد ألفاظ العربية بأنها استطاعت أن تحتفظ بألفاظ ذات دلالات راقية متفرعة عنها، وهنا لا بد من الإشارة إلى الأهمية التي يحظى بها علم التأثيل كضرورة ملحّة في دراسة أصول اللغات، وفهم دلالاتها.

بعد هذا الاستعراض لبعض من النظريات التي عكفت على شرح أسباب نشأة اللغة عامة والعربية بشكل خاص، سنفرد ماتبقى من سطور للحديث عن نظرية المحاكاة. إذ سننتقل في توصيف معطيات هذه النظرية وتحليلها بين الدرس الصوتي العربي القديم والدرس الصوتي العربي الحديث؛ للإحاطة بالأهمية التي استحوذت عليها في الدراسات اللغوية الصوتية بين الماضي والحاضر.

نظرية المحاكاة بين الثنائية التاريخية والثنائية المعجميــة وعلاقتها بالمناسبة الطبيعية:

---

[12] - الراجحي، عبده، *فقه اللغة في الكتب العربية*، بدون رقم طبعة، دار النهضة، بيروت، 1979 م، ص 90-91.

[13] - فاضل، عبد الحق، *مغامرات لغوية*، بدون رقم طبعة، دارالعلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ طبع، ص 203 وما بعدها.

اعتمد أكثر القائلين بهذه النظرية على مبدأ (الثنائية) في تفسير نشأة اللغة الإنسانية، وذلك بمحاكاة الأصوات الطبيعية كمحاولات الإنسان تقليد أصوات الحيوانات، وأصوات مظاهر الطبيعة، أو تعبيره عن انفعالاته الخاصة، أو محاولته الترجمة الصوتية لأصوات الأفعال عند حدوثها، فالكلِم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد، متحرك فساكن؛ محاكاةً لأصوات الطبيعة، وبتوالي المراحل الزمنية المتعاقبة، وجرياً على ناموس الارتقاء العام، زيد فيها حرف أو أكثر في القلب أو الصدر أو الطرف، فتصرف بها المتصرفون تصرفاً اتّسم بسمة الاختلاف، وذلك تبعاً لاختلاف البيئات و المجتمعات و القبائل و الأهوية.[14]

وهذا يعني أن اللغة منقولة عن الأصوات الطبيعية؛ إذ تحدّاها الانسان بمنطقه، وحاول مجاراتها بجهازه الصوتي في بدايات المراحل الأولى لاستخدامه، وهذا يفضي إلى سؤال مهمّ مفاده: هل يمكن أن يُعَدَّ الهجاء الواحد المتكون من مقطع ثنائي بسيط مثالاً على بداية اللغة الإنسانية، أو هو مثال على بداية تكون اللغة العربية؟!.

نظرية المحاكاة في الدرس اللغوي العربي القديم:

من علماء العرب ولغويّيهم من مال إلى تقرير هذه الظاهرة اللغوية في نصوص واضحة، نهض بها كي يفسر أصل اللغات اعتماداً على معطيات هذه الثنائية، فمن اللغويين القدماء على سبيل المثال ابن جنّي (ت.392هجري)، والذي لم يكن يعرض في خصائصه مجرد آراء أو وجهات نظر، يستحسن بعضها ويتجاوز بعضها الآخر، " بل كان فضلاً عن قبوله أو رفضه لرأي من الآراء يتتبع أمثلة ويتوسع في مجالات تطبيقية، وهذا ما فعله في مواضع كثيرة مثبوتة في كتابه وأهمها بابان: (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)".[15]

ففي مسألة الثنائية التاريخية يبدو ابن جني متردّداً بعض الشيء في بادئ الحديث، فهو ينسب الرأي السابق إلى بعض أسلافه من علماء اللغة ثم يبدي إعجابه به وينزل عنده منزلة القبول، ولايجد حرجاً من التصريح بذلك حيث يقول:" وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعة كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك..... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل".[16]

ويدعم ابن جني في مقامٍ آخر من كتابه رأيه السابق في خصوص ولادة اللغات وتحديدا في باب إمساس ألفاظ أشباه المعاني، إذ يستهلّه بقوله: " اعلم أن هذا الموضع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه.....".[17]

وبمقاطعة تحليليّ ابن جني، يُدرك أن هذه المناسبة الطبيعية بين اللفظ وما يحمله من مدلولات قد فطن إليها قدامى علماء اللغة ممن ذكرهم ابن جني، واستشهد بآرائهم كالخليل، وسيبويه، وهذان العالمان تناولا هذه

---

[14] - الصالح، صبحي، *دراسات في فقه اللغة*، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1970 م، ص 148 .

[15] - قدّور، محمد أحمد، *مدخل إلى فقه اللغة*، ط1، دار الفكر، دمشق، 1993 م، ص 193.

[16] - ابن جني، *الخصائص*، 1/ 46-47.

[17] - ابن جني، *الخصائص*، 1/ 44-45.

الفكرة بشكل واضح وجليّ مما جعل ابن جني يجرؤ على قوله التالي: " إن هذا الموضع شريف تلقّته الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته... ".[18]

حاول ابن جني في خصائصه التعريج على مسألة نشأة اللغة وأصلها، وقدّم لأجل ذلك جملة من التحليلات و التصورات؛ حاول من خلالها تفسير البدايات الأولى التي رافقت ظهور اللغة، ومجملها ينتهي عنده إلى ربط نشأة اللغة كتقليد لأصوات الطبيعة. إذ يقول في موضع من كتاب خصائصه: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار .....إلى قوله: وهذا عندي وجه صالح، ومذهب مُتقبل".[19]

والحقّ أن ابن جني كان معجبًا بهذه النظرية، وقد تطرق إليها في مواضع غير قليلة من كتابه، وزاد على ذلك بأن خصّص باباً مستقلاً أطلق عليه اسم " باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني" تناول فيه مجموعة من الظواهر اللغوية الصوتية و التي خلُص من دراستها إلى نتائج عظيمة جميعها تؤكد عنوان بابه، فاللفظة عنده صوت من أصوات الطبيعة قد يكون أحادياً أو مركباً.

ومن لغويي العصر القديم نجد الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت.170هـ)، وقد تناول فكرة تسمية الأشياء انطلاقا من محاكاة صدى أصوتها، وذلك عبر مثال صوت الجندب الذي فيه استطالة ومدّ، فرأى أن إطلاق تسمية صرصر جاءت منطقية ومتقبلة عنده. بينما نجد سيبويه(ت.180هـ) يتحدث عن صوت الثور الذي هو خوار، وعن صوت الحمار وهو النهيق، إذ لمح في كلا الاسمين محاكاة طبيعية للصوت. كما قال في تسمية المصادر التي جاءت على الفعلان: أنها تأتي للاضطراب و الحركة نحو الرجفان والنقزان والغليان والغثيان والفوران، وزاد بأن أدرج أمثلة توضح قبوله لمنطق المحاكاة، من ذلك تسميتهم الخاباز لصوته، والبط لصوته وغاق الغراب لصوته، والبط لصوته وغاق الغراب لصوته، وقولهم: بسملت وهيللت، و حوقلت، كل ذلك إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات و الأمر أوسع".[20]

وعلى أساس هذه النظرية تكون الصورة الأولى لظهور اللغة قد تلاقت مع نظرية محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية من حوله، ويدخل في ذلك أيضا أصوات انفعالاته، وأصوات الحيوان، ومظاهر الطبيعة، وأصوات الأدوات.

ومن اللغويين القدامى من تبنّى فكرة الثنائية التاريخية، كعباد بن سليمان الصيمري(ت.250 ه)، حيث أيّد وجود علاقة بين اللفظ و مدلوله تحت تأثير مناسبة طبيعية تحكمهما، حيث رأى أن تخصيص الاسم المعين بذاته بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح.

---

[18] - ابن جني، *الخصائص*، 1/45-46.

[19] - ابن جني، *الخصائص*، 1/ 46-47.

[20] - الفراهيدي، الخليل بن أحمد، *العين*، حققه: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، باب الراء والصاد والراء(مادة: صرر)، كما ينظر: سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، *الكتاب*، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، 1/360، 1/372 ومابعدها.

وقد ورد في كتاب "المزهر" للسيوطي أن عباداً سُئل"ما مسمى (أذغاغ)؟ وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر."[21]

ومن هنا يمكن القول إن العلاقة الطبيعية التي تحكم اللفظ و ما ينطوي تحته من مدلولات لا يقتصر فيها عند عبّاد ومن تبعه على اللغة العربية، بل يمكن القول إنها تمشي على سائر اللغات، فكلمة أذغاغ منشؤها فارسي، وعند سؤال عباد عن معناها جاء بجواب يوحي من قريب أو بعيد بمعرفته باللغة الفارسية على قدر متواضع، ومع ذلك لاقى جوابه عند أهل اللغة قبولاً و استحسانًا.

وقد جاء تصور عباد منطقيًا عندما وجد ثمّة مناسبة ذاتية بين الصوت والمدلول، وأقرّ بحتمية وجودها، مع صعوبة إدراكها وتحسسها في بعض الأحيان، وهذا ما قصده السيوطي عندما قال:" وأما أهل اللغة والعربية فقد كانوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين اللفظ والمعنى، لكن الفرق بين مذهبه ومذهب عباد أن عبادا يراها ذاتية موجبة بخلافهم."[22]

يمكن القول إن هؤلاء اللغويين قد ارتضوا قانعين بفكرة المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني، وإليها أرجعوا أصل اللغة على وجه العموم، والعربية على وجه التحديد، وما يزيد قناعة الدارس بهذه المناسبة هو وجود اتفاق ما بين تصورات ابن جني وعباد، الأمر الذي جعل من ظاهرة المحاكاة نهجًا معتمدًا فرض نفسه في مجال دراسة فقه اللغات بشكل عام.

أما "ابن فارس" (ت.395هجري)، في معجمه (المقاييس) فقد كان ممن أخذوا بمفهوم النظرية الثنائية وأثرها في نشأة اللغة وتطورها، حيث إنه عمل على ردّ معظم الألفاظ الثلاثية أو الرباعية إلى جذرها الأم الذي هو عبارة عن مقطع أحادي بسيط، صوت هذا المقطع من شأنه أن يحاكي صوت أحد المسموعات الطبيعية، فمثلاً عندما اشتغل في المادة الصوتية (قَطْ) عمد إلى ردّ أصل (باب القاف مع حرفي الطاء والعين وما يشاكلهما في المادة الصوتية) إلى معنى القطع، إذ إنه يراه في (قطع) الذي يدل على مجموعة من المعاني المشتركة كالفصل والبتر، وكذلك (صرَم): إبانة شيء من شيء، وفي (قطف) الذي يدل على قطع الشيء، وكذلك (قطم)، فالفاء والعين والميم جاءت بصفة أحرف مزيدة على الجذر الأم (الأصل الثنائي: قط)، فمنحت المعنى الرئيس للقطع دلالات متنوعة، تحاكي درجات هذا الحدث باختلاف كل من الفاعل، وآلة الفعل، وما يقع عليه الفعل، فتراوحت ما بين الإبانة و الفصل والصرم والأخذ، مراعية أصوات القطع أثناء حدوثه بين الشدة والغلظة، جرياً على محاكاة الصوت المسموع المتجسد بالمقطع الأحادي (قط).[23]

---

[21] - السيوطي، عبد الرحمن جابر الدين، *المزهر في علوم اللغة و أنواعها*، شرح وتعليق: محمد جاد المولى، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البيجاوي، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ طبع، 47/1.

[22] السيوطي، *المزهر في علوم اللغة*، 47/1-48.

[23] - ابن فارس، أبو الحسن أحمد، *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1366هـ، مادة (قط).

وفي معجم ابن فارس- المقاييس- نماذج كثيرة من المواد اللغوية، التي لم يتوان عن إرجاعها إلى جذور ثنائية بسيطة تحاكي مسموعاتها[24]، وكان يشير دائما إلى ذلك، ولكن يلاحظ أنه لم يتخذ من حكاية صوت المقطع صوتاً يقاس عليه، ومثال ذلك ما جاء في عرضه لمادة (وَلْ)، حيث عقب عليها بالكلام الآتي: " ول: الواو و اللام : الولولة : الإعوال و أصوات النساء بالبكاء"[25].

ويمكن القول باطمئنان إنّ ابن فارس كان مهتمًا بصورة جدية بنظرية الثنائية التاريخية، وإليه يعود الفضل في نقل هذه الثنائية من الإطار التاريخي السماعي إلى الأفق المعجمي، فقد جسّد عنايته بهذه النظرية عندما ألّف معجمه المقاييس، وأقل ما يمكن أن يوصف به أنه مخزون لغوي ثريٌّ بمواده اللغوية، يسّر على الباحثين عناء البحث عن المعاني في ظلّ كثرتها وتنوعها؛ لأنه جمعها في أصول قليلة.

نظرية المحاكاة في الدرس اللغوي العربي الحديث:

سيراً مع الزمن الذي يحكم مثل هذا النوع من الدراسات، يؤول الانتقال إلى زمن المحدثين من علماء اللغة، فقد بذلوا وافر جهدهم وهم ينهلون من دراسات القدماء، لينطلقوا منها إلى مزيد من الاجتهادات والتحديات؛ ليكملوا بها ما بدأ به الأولون. و لعل أبرز اسمين من أسماء هؤلاء اللغويين المحدثين ممن أثْروا البحوث اللغوية في أواخر القرن الثامن عشر هما: أحمد فارس الشدياق (ت.1887م) في كتابه: "معجم سراللليال في القلب والإبدال"، وجرجي زيدان (ت.1914م) في مؤلفه: " الفلسفة اللغوية و الألفاظ العربية".

قبِل الشدياق بنظرية محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية، ورأى فيها وسيلة ناجعة تفيد في تخصيص أصوات معينة لمسميات معينة، بحيث يختص كل صوت بمدلول واحد قد لا يتجاوزه إلى آخر" فمعظم اللغة مأخوذ عن حكاية صوت". [26]

والمقطع الأحادي (حرف متحرك+ حرف ساكن) يمثل حكاية الصوت، وكثيراً ما حاول الشدياق مقاربة المعنى الحسي الملموس مع هذا المقطع؛ قناعة منه أن العلاقة بين الصوت ومعناه تترسخ في ذهن المخاطَب قبل المخاطِب، عندما تخلق صورة حسية فيها اتفاق بين حكاية الصوت و المدلول، وقد أطنَبَ هذا اللغوي في إيراد كثير من الأمثلة في معجمه " سر الليال في القلب و الإبدال" فمثلاً المقطع (عَبْ): هوحكاية صوت شرب الماء، أو الجوع، غير أن المقطع الأحادي لا يحمل القصد الدلالي المدوّن في المعجم؛ لذلك سيبقى حبيس الغموض، والعقم الدلالي.

---

[24] - ابن فارس، معجم *مقاييس اللغة*، المواد: (هرّ، همّ، أخ، أزّ).

[25] - ابن فارس، معجم *مقاييس اللغة*، مادة: (وَل).

[26] - الشدياق، أحمد فارس، معجم *سر الليال في القلب والإبدال*، بدون رقم طبعة، المطبعة العامرة السلطانية- الآستانة، إسطنبول، 1284هـ، ص22.

ويعلّل الشدياق الغموض والعقم السابقين فيما يخص دلالة الوضع أن الواضع لما وضع (قَدْ) و(دَقْ) لم يقصد بها في بادئ الأمر أن تكونا فعلاً أو اسماً، بل مجرد حكاية لصوت توهمّه بغضّ النظر عن شيء آخر، " فلما وصل (دقْ) بفاعله قال: دقَّ الرجلُ، ولهذا كثيرا ما تأتي صيغة الاسم والفعل في هذا الباب واحدة." [27]

فالمرحلة الأولى تمثّلت بالمقطع البسيط الذي لم يجمد عند تكوينه البسيط من متحرك فساكن، إذ تطور بعد ذلك إلى صور أكثر نضوجاً في الشكل والدلالة، فأحيانا يطرأ تضعيف على الحرف الثاني، وأحيانا تُدمج السكون بالحركة فيتمخض عن ذلك المضاعف الثنائي.

لذا يمكن اعتبار المضاعف الثنائي أساس المادة المعجمية كما وصفه الشدياق، ومن جهة أخرى يعزو أساس اللغة الصوتية إلى المقطع الأحادي، ولعل خير تسمية يمكن إطلاقها على هذه المرحلة النشوئية للمقطع الأحادي هي مرحلة المقطع الخام، والذي يصنَّف على أنه دور أو مرحلة متقدمة ومتطورة للأصوات الفطرية الطبيعية والانفعالية.

ويقول الشدياق في مسألة المضاعف الثنائي: "معظم اللغة مأخوذة من حكاية صوت" [28]، فهو ينسب حكاية الصوت إلى هذا المضاعف نحو (دقْ، دفْ، ضمْ)، فالمضاعف يشكل نواة البنية الصافية الرئيسة لمادة الكلم، واستشهد على كلامه بأمثلة يُدرك المعنى فيها من هيئة المضاعف مثل: سلَّ: سلبَ، كدَّ: كدح، ضمَّ: ضمدَ، طقَّ:طرقَ، فالحروف المَزيدة تستوجب الزيادة في المعنى، وتخصيص الدلالة.

أمّا **جرجي زيدان** في مؤلفه "الفلسفة اللغوية "، فقد تحدث فيه عن البنى المانعة الدالة على معنى في نفسها، وهو في حديثه هذا يطابق الشدياق ويوافقه في مسألة حكاية الصوت، وقد ردّ معظم الألفاظ الدالة على معنى في نفسها إلى أصوات ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصوات الطبيعة و موجوداتها.

معظم الكلمات عند زيدان قابلة للرد بواسطة الاستقراء إلى جذرها الأم، ويتمثّل هذا الجذر عل هيئة أصول أحادية المقطع تحاكي أصوات المسموعات، وهذا الإرجاع إنما يتمّ بعد عناء كبير لم يبذله اللغويون الآخرون، فكانت الأصول التي ردّوا إليها الاسم والفعل ثلاثية في معظمها؛ وبالنتيجة فهم لم يحمّلوا أنفسهم جهد البحث و التقصّي، وقد عبّر زيدان عن ذلك الجهد بقوله: "ولو بَعُد العناء". [29]

وقد طرح زيدان مجموعة من الأمثلة شرح من خلالها قضية الأصل اللغوي للألفاظ بإرجاع كل منها إلى أصلها الثنائي، ثم عكف على دراسة الحرف المزيد وموقعه من اللفظة؛ للوصول بعد ذلك إلى دلالات وليدة جديدة يفيدها هذا الحرف المزيد وفق موقعه من المفردة اللغوية. فمثلا: الأصل اللغوي (قَطْ): صوت يتكون من مقطع أحادي يحاكي صوت القطع ثم يذكر بعضاً من المقاطع الثلاثية والتي يحتوي كل منها حرفاً مزيداً على المقطع الأصلي من مثل: (قطّ، قطَع، قطَم، قطَع، قطَل)، وجميعها تتضمن معنى القطع، إلا أن كل واحد منها بما يحمله من درجات القطع و حدّته قد استُعمل لتنوع من تنوعاته؛ فالمقطع (قطْ) بزيادة التضعيف أو زيادة الباء في

---

[27] - الشدياق، معجم *سر الليال في القلب والإبدال*، ص22.

[28] - الشدياق، أحمد فارس، معجم *سر الليال في القلب والإبدال*، ص25.

[29] - زيدان، جرجي، *الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية*، ص98.

آخره يتضمن مع القطع معنى الجمع، و زيادة الميم في (قطَم) تفيد العضّ واللام في (قطَل) أفادت شدة الحدَث، وكما يلاحظ إنّ المقطع الأم (قطْ) يجمع هذه المواد اللفظية على تنوّع دلالاتها. [30]

فمن هذه المقاطع الثنائية المزيدة بحرف اشتُقت في مراحل متقدمة مجموع من الألفاظ تفيد في مجملها معاني صوت القطع رغم كثرتها. وما قيل في المقطع(قطْ) وما نتج عنه من مواد يقال أيضًا في المقطع(قصْ) وماينضوي تحته من معان من مثل: قصم، قصل، قصب....إلخ

بعد تتبع آراء الشدياق وزيدان يمكن القول إن واحدهما قد وافق الآخر في مسألة حكاية الصوت، وأن كل مقطع زاد عن حرفين اثنين قد جاء طيّعا للرد بالاستقراء إلى مقطع أحادي وبعدها تلحقها الزيادات لتزيد الدلالات، وكلاهما درس موقع الحرف المزيد من المقطع الأصل، فقد يكون موقعه إما في الصدر، أو في الطرف.

ووفق تصوّر زيدان لفكرة مجيء بعض الأفعال الثلاثية المركبة من أصلين فإنه فصّل هذين الأصلين إلى (حكاية صوت+ حكاية صوت)، وكل أصل منهما يحمل معنى في نفسه يغاير الآخر ويكمل معناه في آن معاً، ومثال ذلك الفعل (قَمَشَ) الذي هو حصيلة عملية النحت المطبقة على المقطعين الأصليين: (قَمْ+قَشْ)، إذ إن دلالة (قَمش) تعني جمع الفتات الذي على الأرض ولمّه، وهي عند زيدان تُرجَع إلى أصلين هما:(قَمْ: كنس)، و (قَشْ: جمع)، فكانوا إذا أرادوا كَنْس شيء ما و جمعه قالوا: "(قَمْقَش)، و بالتخفيف ألغيت القاف الوسطى فقيل (قمش)، ومثل ذلك كثيرا في الألفاظ الثلاثية[31].

خلاصة القول من شروحات الشدياق وزيدان إنّ المحاكاة تمثلت عندهما- وعند من تبعهما- بالمقطع الأحادي، فهو أول ما نطق به الإنسان تقليداً لما حوله من أصوات في الطبيعة على اختلاف مصادرها، فالمقطع (عَبْ) يعني شرب الماء أوالجرع، وهو بتوصيف الشدياق حكاية صوت، ونحوذلك يوجد كثير من المقاطع البسيطة موضوعة في أصلها بأنها تحاكي صوت المسموعات، والسؤال الذي يفيد طرحه هنا: هل الهجاء الواحد مثل: (عَبْ، قَصْ،قَطْ،.....) مثال على بداية اللغة الإنسانية، أو هو مثال على بداية اللغة العربية؟!.

فالقول بالمحاكاة يلزم-عنه بالضرورة- وجود مجموعة من الحدود المسموعة، والتي تفصل بين صوتين مختلفين لحدث ما، له مراتب سمعية مختلفة كما هو الحال بين المقطعين:(قط) و(حز)، حيث إن وجود حدود فاصلة بينهما أمر لم يتحقق.

من الثنائية التاريخية إلى الثنائية المعجمية:

لم تبقَ الثنائية التاريخية حبيسة الجانب السماعي، و بتطورها كان لا بد لها أن تدخل جانب التوثيق الكتابي في صفحات المعاجم. فالمعجم العربي يهتم بماهية العلاقة الكامنة بين الكلمة والمعنى. لذلك إن "أول سؤال يطرحه نظام المعجم العربي يدور حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت و المدلول نتيجة لمحاكاة أصوات

[30] - زيدان، *الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية*، ص98-101.

[31] - زيدان، *الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية*، ص101-103.

الحيوان و الطبيعة، لذا يمكننا القول بأن اللسان العربي لسان أصيل بدائي النشأة"[32]. فالكلمات التي بدأ لسان الإنسان الأول بنطقها، إنما تتمّ وفق عملية عضوية - فيزيولوجية- وتتكون عضوياً من انبثاق المعنى دون تحكم العقل.

في اللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة، ما يهم شأن اللغة العربية في هذا الموضع أن معانيها تمثل تجربة الحياة تمثيلاً دقيقاً ومستقلاً عن اجتهاد المجتهدين؛ إذ لا يكاد الذهن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي أنشأها. وقد تعرض صبحي الصالح في مؤلفه (دراسات في فقه اللغة) للعنوان الأول، فرأى أن مسألة القبول بالثنائية التاريخية أو عدمه إنما هي مسألة مشروطة بملازمة هذه الثنائية للمقطع الأحادي البسيط، وطرح سؤالاً مهمّاً فيما إذا كان هناك وجود لرابط منطقي يُلمح بين الصيغ المزيدة وبين أصولها الثنائية في نشأتها الأولى.[33]

ويجيب هو نفسه بأن أصحاب هذا الرأي لا يعجزهم إيجاد ذلك الرابط، فهم تقصّوا العلاقة الثنائية منذ أن نشأت نشأتها التاريخية الأولى، مروراً بما طرأ عليها من تغيرات صوتية ودلالية وصولاً إلى المقام الذي آلت إليه بصورتها الحالية في المعاجم، الأمر الذي يفرض أن تسمى بالثنائية المعجمية، وبالاستقراء ردّوا معظم المواد الثلاثية والرباعية إلى أصول ثنائية زيد عليها صوت أوأكثر،" والتمسوا بين صورتها الأصلية المجردة وصورتها المتطورة المزيدة جامعاً معنوياً مشتركا"[34]. وقد وجد هؤلاء في هذه الزيادة سبيلاً مفيداً من أجل توليد الألفاظ الجديدة، وتجديد المعاني والدلالات بقصد تكثيرها، مع نية الاحتفاظ بفحوى المعنى الأصلي القديم.

تتجسد فكرة الانتقال من الثنائية التاريخية إلى الثنائية المعجمية بصورة أوضح عند اللغوي **زكي الارسوزي** (ت.1968م)، حيث لم يختلف في آرائه وأفكاره عمّن تناولوا هذا الانتقال، فهو يرى أن" اللسان العربي اشتقاقي البنيان ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة الخارجية تقليداً للأصوات الحاصلة فيها، أو عن طريق الطبيعة الإنسانية..."[35].

فتكوُّن اللفظة وفق رؤية الأرسوزي يتطلب تآلف ثلاثاً من الحواس الإنسانية مجتمعة، وهي الحدس، و البصر، والسمع، فتزاوج خصائص الشيء المرئية مع الصوت المعبِّر عن صدى تأثيرها في النفس البشرية من شأنه أن يُحدث الكلمة، وبعد ذلك يجيء دور العمل اللغوي القائم على الاشتقاق أساسا؛ حيث تنشق من الكلمات كلمات أخرى تحمل دلالات جديدة ولكنها " تظل محتفظة بنسب النشأة الطبيعية".[36]

---

[32] - *مجلة الموقف الأدبي*، مجموعة كتّاب، تصدر عن دار اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، عدد (181-182-183) حزيران- تموز، 1986 م، ص15.

[33] - الصالح، صبحي، *دراسات في فقه اللغة*، ص153.

[34] - الصالح، *دراسات في فقه اللغة*، ص153.

[35] - أحمد، خليل، *دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي*، بدون رقم طبعة، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ طبع، ص101.

[36] - أحمد، خليل، *دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي* ، ص102.

ويستدل الأرسوزي بلفظة (آخ) التي هي للتوجع تدعو الأقارب لترديد الصوت قائلين هذه اللفظة التي تعد منشأ الكلمات الآتية: (أخ، أخاء، أخوة...) وما شاكلها، فالإنسان عندما يتوجع؛ يتوجه بألمه عفويا نحو أقرب الأشخاص إليه وهو الأخ الذي يشارك أخاه المتوجع و يواسيه في مصابه.

وقد شرح الأرسوزي أمثلة كثيرة في دراساته اللغوية الصوتية في سبيل استخلاص مرجعية كل كلمة عربية، و السعي بعد ذلك إلى تثبيت أصل منشئها على أساس تلازم الصورة الصوتية المرئية فيها، ومن تلك الصورة الأولى بدأت المشتقات تتمخض، لتتولد في مراحل لاحقة الكلمات بآلية الاشتقاق المعروفة، وتصبح جاهزة للدخول في متون المعاجم. ويبدو هذا التوجه جليّاً في المثال الذي شرحه الأرسوزي عندما حلّل الجذر(فرْ+فرّ)، وهو صورة صوتية لحركة الطائر في موضع التجهز للطيران عن طريق الرفرفة و القفز؛ فيُحدث طيرانه المرئي هذا الصوت. والطائر يجسد الصورة البصرية المرئية كاسم جنس لنوع من المخلوقات التي تمتلك أجنحة، و بتوجيه الذهن للسان ترتسم صورة عفوية معادلة لما رأته العين، وسمعته الأذن في تلك الحالة الطبيعية، وبالاشتقاق تولّدت كلمات كثيرة ذكر منها الأرسوزي كلمة (فرس)، وهو أيضا اسم جنس لنوع من الحيوانات التي تمشي على أربع قوائم، حيث إن زيادة حرف السين كلاحقة في نهاية الجذر(فرْ) أسهم في صناعة كلمة (فرس)، وهذه الزيادة نتجت عن التشابه والاختلاف بين الطائر والحيوان (الفرس)، ونقطة الشبه بينهما تتمثل في السرعة، لكن الاختلاف يكمن في احتكاك حوافر الفرس بالأرض وهو يجري محدثاً صوتاً قوياً نظراً لضخامته وسرعة عدوه وثقل جسمه، مما جعل صانع هذه المادة يتعمّد في تحريكه حرف الراء، ويُلحقه بالسين لتتساوى الكلمة مع الشيء الذي تصوره في ذهنه، وأدرك حدوثه بحاستي البصر والسمع.[37]

فالطبيعة والنفس تتعاونان في إنشاء اللغة وإنمائها، مع الميل إلى الأخذ بأن أصل النشأة في النفس، وفروع النمو أُوكلت للطبيعة والمجتمع،" فالوظيفة الجوهرية هي تبليغ المعنى من خلال الأصوات المختلفة، فاللغة في حد ذاتها أصوات"[38].

الدراسات السابقة التي عُرضت في حديثنا عن أصداء نظرية المحاكاة في الدرس الصوتي العربي – قديمه وحديثه- تشير إلى مصداقية نظرية الثنائية التاريخية - سواء عند القدامى أم المحدثين- لذا يمكن القول باطمئنان إن العربية الأولى تكونت مثل غيرها من اللغات، من أصول ثنائية البناء، مركبة من حرفين، تحاكي الأصوات التي نطق بها الإنسان البدائي على مقتضى غريزته. وبفعل التطور والرقيّ تعددت الكلم بإضافة واحدة أو أكثر إلى الأصل الثنائي الثابت، وهذا بدوره يُمتّن حتمية وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول، فالإنسان في تقليده لأصوات المسموعات في بداية حياته أشبه بالطفل بعد ولادته.

وبقصد تعزيز فكرة المحاكاة في ذهن القارئ، ولترسيخ قناعة طيبة في تصوراته للفائدة المرجوة منها نسوق جملة من الأمثلة التطبيقية التي قد نلجأ في بعض منها إلى استخدام طريقة المقارنة بين المثال في العربية وما يوازيه في لغات أخرى، وهذا من شأنه أن يدعم ما جاء في متن هذه المقالة؛ لتعزيز الاقتناع بنظرية

---

[37] - أحمد، *دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي* ، ص118 وما بعدها.

[38] - الوعر، مازن، *قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث*، ص132.

الثنائية التاريخية القائلة بفطرية اللغة في أصل نشأتها الأولى. وهذه الأمثلة ما هي إلا براهين حسية ستُدرس كدليل على سلامة معطيات هذه النظرية، ومن أجل الأخذ بمعطيات هذه الثنائية؛ لاستخراج عناصر اللغة الأولية من أسماء الأصوات، ودعاء الحيوانات وزجرها، وبعض أسماء الأفعال والأصوات الغريزية الانفعالية. ونشير إلى أن المقاطع التي سترد في هذه الأمثلة قسم منها مأخوذ من دراسات ابن فارس والشدياق، حيث أُخِذ المقطع منهما ليُدرس بعد ذلك ويُحلّل صوتيًا ودلاليًا، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر نورد المقاطع الثنائية الآتية:

المقطع **(هَمْ):** ومنه الهمهمة: ونقول فيها: هي حكاية صوت الزفير الذي يطلقه الأنسان اليائس المهموم، وبتعاقب الأزمان تولدّ منها الفعل (همّ)، وتبعته صيغ اشتقاقية مختلفة من مثل:(مهموم،هموم،...)، فالأصل هو المقطع البسيط (همْ).

المقطع **(وَيْ):** ينطق بها الإنسان للتأوّه بموجب فطرته، وتحديدًا في أوضاع التألم النفسي أو العذاب الجسدي، وقد تلزمها لام الجر في آخرها فتصبح (وَيل)، ويُدَلّ بها على التفجّع أو حلول الشر، " وبتوالي الأزمان صرفوها و اشتقوا منها و زادوا عليها فقالوا: ويَّلَ، تويَّلَ، توايل."[39]

كما استُعملت (وَيْل) اسما لوادي في جهنم، فالخالق سبحانه وتعالى عليمٌ بمخلوقه الناطق بما فُطِر عليه، حيث يعلم أن الإنسان إذا ما تعذب فسينطق بلفظة (وَيْ)؛ تعبيرا منه عن شدة ألمه، ولذا أراد أن ينبّه عباده إلى العذاب الذي ينتظر الكافر منهم، فجاءت لفظة (وَيْل) لتجعل الإنسان يتخيل صور العذاب في الآخرة عند سماعه له، وفي القرآن مواضع كثيرة وردت فيها هذه الكلمة من مثل قوله تعالى:"ويلٌ للمصلين"(الماعون:7:4)، وكذلك:"ويلٌ للمطففين"(المطففين:36:1).

وقد تأتي (وَيْ) اسم فعل بمعنى (أَعجبُ)، من ذلك قول عنترة في ديوانه:

لقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيلُ الفوارس: وَيك عنترة أقدم[40]

ونظير هذا المقطع نجده في اللغة التركية، فالأتراك في سياقات التعجب والتفجع يقولون: (vay vay)، وفي الإنجليزية (woe)، وفي الإسبانية (guay)، وفي الفارسية (واى بر او).

المقطع **(أُفْ):** وهو حكاية صوت الاستكراه والازدراء الذي ينطق به الانسان عندما يستاء أو ينزعج، ويصلح أن يكون حكاية صوت التذمر أيضاً.

ومن لفظة (أفْ) اشتُقّ فيما بعد: (أَفّ، يؤُفّ، أفّا) بمعنى تضجّر، ومنها (أفّاف: كثيرالتضجّر)، (الآفة): ومن بعض معانيها المذكورة في معجم القاموس المحيط للفيروز آبادي(ت.817هـ): الجبان و المعدم و الرجل القذر والمرض. والمواد اللفظية السابقة هي معان متنوعة تعود للمعنى الأصلي المتمثل بالمقطع (أُفْ).[41]

---

[39] - زيدان، جرجي، *الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية*، ص117.

[40] - الإربلي، علاء الدين بن علي، *جواهر الأدب في معرفة كلام العرب*، صنعة د. إميل يعقوب، ط1، دار النفائس، بيروت، 1991 م، ص513.

[41] - الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، *القاموس المحيط*، ط2، دار الريّان للتراث، بيروت، 1987 م، مادة (أفف: أُفّ).

المقطع (**تَفْ**): وهو حكاية صوت البصق، ومنه اشتقوا: (تفَلَ: بصَق) فمن دواعي قيام الانسان بهذا الفعل الاستخفاف بالأمر، أو الاستهانة بشيء مادي أو معنوي؛ لذلك جاؤوا بالفعل (تَفِهَ): خسّ أو قلّ، ومنه التافِه.[42] ولما كان (التفّ) يحدث أحيانا عن استكراه بعض الأطعمة؛ جيء بالمصدر (التفاهة) في الطعام أي عدم الطعم، ومن ذلك : (طعام تفِه) أي لا طعم له ولا مذاق يستطاب. وفي حالات الغضب تُستخدم لفظة (التفّ)؛ لذلك قالوا: (تفيء: احتد وغضب)[43]. "وإذا كان صوت (التفّ) يُسمَع عند محاولة إخماد النار استعملوا مادة (طَفِيء) بالإبدال"[44] ، حيث أُبدلت الطاء بالتاء؛ انطلاقا من تجانس مخرجهما الصوتي؛ بقصد إكثار المعاني وإغناء الدلالات، والفعل طَفِيء يدل على عملية إخماد النار.

ومن السمات الصوتية لحرف الفاء اختصاصه بحدث النفخ، فالإنسان عندما ينفخ يخرج صوتاً حكايته المقطع (أُفْ)، وبعد ذلك اشتقوا منه الفعل الصريح (نفخ). وبمقارنة المقطع الصوتي للفعل (نفخَ) مع ما يقابله في اللغة الإنجليزية (puff)، وفي الفرنسية (Soufflér، enfler، gonfler)، وفي التركية يقال للنفخ (üflemek-üfürmek)، وفي الإسبانية (Inflacıón). إذ نجد جميعها تفيد معنى النفخ، مع وجود ما يشير إلى حكاية صوت الفعل وهو حرف الفاء.

ومن أجل دعم توجهات هذه النظرية ارتأينا أن نعرّج على مجموعة جديدة من الأمثلة، وهي حديثة على صعيدَي اللفظ والمعنى، لم تكن موجودة أو مستعملة في سابق العهود، وإنما فرضتها تطورات الحياة، وتقدم الحضارة البشرية، وتوجه الإنسان نحو الابتكار والتصنيع؛ بهدف سدّ حاجاته المتولدة جيلاً بعد جيل، وهذه الأمثلة عبارة عن محاكاة لأصوات المسموعات المتمثلة في مقطع ثنائي بسيط يحاكي صوت آلات جديدة، ومخترعات حديثة لم تكن موجودة قديماً، وقد يكون السامع قد اهتدى إلى تجانس الصوت مع الدلالة فاتّخذ من المحاكاة سبيلاً إلى التسمية، مع ملاحظة عدم وجود اتّفاق بين دلالة المقطع البسيط قديماً وحديثاً؛ بحكم الرُّقِيّ الفكري، والتطورين العلميّ و العمليّ. من هذه الأمثلة نستعرض بعضًا من المقاطع الصوتية، وما ينجم عنها من مواد لغوية، مع محاولة توظيف الأسلوب المقارنيّ في أثناء تحليلها صوتيًا ودلاليًا بين العربية وغيرها من اللغات:

المقطع (**عَنْ**): مقطع يحاكي صوت المحرك الآلي عند تشغيله، ولربما يكون السامع قد فطِن إلى هذا الصوت فجاء بالفعل (عنَّ، يعِنُّ)، وبزيادات لاحقة أوسابقة على هذا الأصل الثنائي اشتُقَّ اسم الآلة (عَنفة)، وما توالد بعد ذلك من صيغ اشتقاقية يمكن ربطها بالمقطع (عَنْ) من مثل: (عنيف، عُنْف) إشارة إلى أي عمل أو سلوك يتُم بصورة قوية، ويلزمه جهد مبذول، كما يمكن أن تطلق كلمة عنيف كصفة للإنسان القاسي في طبعه. و العامة تقول: (عنَّ الولد): أي بكى بكاء قويا بصورة مستمرة، و بصوت عالٍ دون انقطاع، كما هو الحال في صوت العنفة المتمثل بالمقطع (عَنْ)، حيث يحدث هذا الصوت بإيقاع قوي وحالة مستمرة أثناء عمل هذه الآلة.

---

[42] - زيدان، *الفلسفة اللغوية و الألفاظ العربية* ، ص148- 150.

[43] - الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، مادة (تففَ: تفّ)، مادة (فاء).

[44] - زيدان، *الفلسفة اللغوية و الألفاظ العربية*، ص149.

المقطع (**تَكْ**): حكاية صوت عقرب الساعة الذي يسير في مجال دائري، و بصورة منتظمة دقيقة وحركات ثابتة، ولا غرابة أن تكون الكلمات (تكتَك، تكتيك) مشتقة من هذا المقطع، فاللغة الحديثة تستخدم التركيب: (تكتك الرجل) أي:تمهلّ في عمله كي يتقنه وينجزه بصورة دقيقة وسليمة لا خطأ فيها، ومنه قيل: (تقنية، تقنيّ، تقنين، إتقان) وجميعها تحمل معاني الدقة والضبط والتنظيم.

وفي اللغة الإنجليزية يقال:(Technical،Technology)، وفي الفرنسية (Technologique)، وفي التركية (Teknik)، وفي الإسبانية (Táctica).

المقطع **(أزْ):** وهو حكاية صوت الرصاص بعد خروجه من فوّهة السلاح، بحركة لولبية، وبسرعة كبيرة، فقيل إنّ صوت الرصاص هو الأزيز، وقد ورد هذا المقطع في مقاييس ابن فارس يفيد أكثر من معنى منها : التحرّك السريع الشديد، الإزعاج.[45]وفي الإنجليزية يقولون عن الأزيز:(wheezing- wheez)، وفي الإسبانية نجد مقابل كلمة أزيز تبدأ بالحرف المحوري لصوت الحدث وهو حرف الزاي (zumbido).

المقطع **(رَنْ):** وهو حكاية صوت رنين الهاتف، ومنه قيل: رنّ الهاتف، وفي الإنجليزية تستخدم لفظة (tone)، وفي الفرنسية (renne)، وفي التركية (ton)، وفي الإسبانية (Retıntín). وأي صوت فيه رنين يُقال عنه (رنّان)، ومنه رنّة العود.

المقطع **(بُمْ):** وهو حكاية صوت انفجار القنبلة، حيث الباء حرف انفجاري في أصل مخرجه، والعامّة تقول للقنبلة (بومبا) كما في مصر. وفي التركية يقال: (bomba)، وفي الإنجليزية (bomb)، وفي الفرنسية (bombardement)، وفي الإسبانية (bombazo)، وفي الفارسية (بمب).

والهاتف والقنبلة والغوّاصة والحشّاشة وغيرها، هي مسميات تُعَدُّ حديثة الولادة، حالها كحال كثير من أسماء الأدوات والآلات والمخترعات ، مما لا نجد لها حضوراً في متون معاجم الأقدمين؛ لذلك لم نأتِ على استقراء معانيها في القواميس القديمة.

هناك كثير من المسميات الجديدة تحاكي صوت حدوثها، ومن هذا الصوت تم توليد مواد لغوية جديدة، اكتفينا بذكر بعض منها على سبيل التمثيل، وليس على سبيل الحصر والإحصاء؛ من أجل تأكيد صحة نظرية المحاكاة في اعتمادها كطريقة صحيحة وفعالة عند محاولة تسمية كل ما يظهر في حياة الإنسان.

الخاتمة:

عندما يتحسّس الإنسان العربي العلاقة الصوتية بين اللفظ ومدلوله، ممّا يُعرَض عليه من مواد لغته، فإنه يقنع عفويّاً بفطرته الطبيعية وجِبلّته الداخلية الشعورية بأنّ الأصل الأوّل للغة العربية يحوم حول فكرة محاكاة صوتية تربط الاسم بالمُسمّى على أساس من التناغم الصوتي الدلالي بينهما؛ ممّا يجعله يميل إلى كل مسمّى يشاكل صوتُه دلالتَه، ويقف متأملاً متمحصّاً تجاه كل مسمّى لا مناسبة طبيعية قد تُلحَظ بينه وبين صدى حروفه.

[45] - ابن فارس، *المقاييس*، مادة (أزّ)، مع الإشارة إلى أنه لم يرد في شرح هذه المادة أي ذكر لصوت الرصاص؛ وذلك بسبب عدم وجود مثل هذا النوع من الأسلحة في ذلك الزمن.

فالمحاكاة بهذه المقاربة النظرية تُعدّ خطوة الانطلاق الأولى نحو صناعة الإنسانُ لغتَه تماشياً مع تطور الزمان والمكان والإنسان. فهي ببساطة عبارة عن مجموعة معطيات تنهض بتفسير النشأة الأولى للعربية تزامناً مع سبر أغوار الإنسان البدائي، وذلك في غياهب التاريخ البشري الذي تكاد تكون معالمه ضبابية.

المصادر والمراجع :

1- **القرآن الكريم.**

2- **ابن جني،** أبو الفتح عثمان (ت.392هـ)، *الخصائص*، عدد الأجزاء:3، تحقيق: محمد علي النجار، ط2، دار الهدى للطباعة و النشر، بيروت، بدون تاريخ طبع.

3- **ابن فارس،** أبو الحسين أحمد (ت.395هـ)، معجم *مقاييس اللغة*، عدد الأجزاء:6، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1366هـ.

4- **أحمد، خليل،** *دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي*، بدون رقم طبعة، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ طبع.

5- **الإربلي، علاء الدين بن علي،** *جواهر الأدب في معرفة كلام العرب*، صنعة د. إميل يعقوب، ط1، دار النفائس، بيروت، 1991 م.

6- **أنيس، إبراهيم،** *الأصوات اللغوية*، ط1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، 1366 هـ.

7- **التهانوي،** محمد علي، *موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم*، تقديم وإشراف د. رفيق العجم، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية د. عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية د. جورج زيناتي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م.

8- **الجرجاني،** الإمام عبد القاهر(ت.471هـ)، *دلائل الإعجاز في علم المعاني*، صحّح أصله الشيخ محمد عبده، أ. محمد التركزي الشمقيطي، علق حواشيه: محمد رشيد رضا، ط1، منشورات جامعة تشرين، اللاذقية سورية، بدون تاريخ طبع.

9- **الحاج، كمال يوسف،** *في فلسفة اللغة*، ط2، دار النهار، بيروت، 1978.

10- **الراجحي، د.عبده،** *فقه اللغة في الكتب العربية*، بدون رقم طبعة، دار النهضة، بيروت، 1979م.

11- **زيدان، جرجي،** *الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية*، راجعها: د.مراد كامل، طبعة جديدة، دار الهلال، القاهرة، 1969 م.

12- **سيبويه،** عمرو بن عثمان بن قنبر، *الكتاب*، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1182م.

13- **السيوطي**، عبدالرحمن جابر الدين، *المزهر في علوم اللغة و أنواعها*، شرح وتعليق: محمد جاد المولى، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البيجاوي، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ طبع.

14- **الشدياق، أحمد فارس**، *معجم سر الليال في القلب والإبدال*، بدون رقم طبعة، المطبعة العامرية السلطانية (الآستانة)، إسطنبول، 1284هـ.

15- **الشريف الجرجاني**، علي بن محمد، *التعريفات*، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الإبياري، ط2، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 1994 م.

16- **الصالح، صبحي**، *دراسات في فقه اللغة*، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

17- **عباس، أحمد حسن**، *خصائص الحروف العربية ومعانيها*، بدون رقم طبعة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1988 م.

18- **الفاخري، صالح سليم عبد القادر**، *الدلالة الصوتية في اللغة العربية*، بدون رقم طبعة، الناشر: المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، بدون تاريخ طبع.

19- **فاضل، عبد الحق**، *مغامرات لغوية*، بدون رقم طبعة، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ طبع.

20- **الفراهيدي:** الخليل بن أحمد (ت.174هـ)، *العين*، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، عدد الأجزاء:8، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

21- **الفيروز آبادي**، مجد الدين محمد بن يعقوب، *القاموس المحيط*، ط2، دار الريّان للتراث، بيروت، 1987 م.

22- **قاسم، رياض**، *اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي (لبنان في القرن التاسع عشر)*، ط1، مؤسسة نوفل، بيروت، 1984م.

23- **قدّور، محمد أحمد**، *مدخل إلى فقه اللغة*، ط1، دار الفكر، دمشق، 1993م.

24- **الوافي، عبد الرحمن**، *فقه اللغة*، ط4، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1956م.

25- **الوعر، مازن**، *قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث (مدخل)*، بدون رقم طبعة، دار طلاس، مطبعة العجلوني، دمشق، بدون تاريخ طبع.